المنطقة الرمادية

قصص قصيرة

ماري تيريز كرياكي

الكتاب: المنطقة الرمادية
المؤلف: ماري تيريز كرياكي

رقم الإيداع: ١٠٨٣ / ٢٠٢٣
الترقيم الدولي: 978-977-493-904-4
الطبعة: الثانية / ٢٠٢٣

الناشر
شمس للنشر والإعلام
ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)
www.shams-group.net
shams@shams-group.net

شمس
للنشر والإعلام

المنطقة الرمادية

قصص قصيرة

ماري تيريز كرياكي

الطبعة الثانية

إهـداء

إلى وَلديَّ:

زينون و سيروس

شُكر

إلى أسد... رفيق دربي وسندي في هذه الحياة

إلى أستاذي فيصل حوراني

إلى صديقي عبد الناصر عيسوي... الذي بفضل تشجيعه ودعمه وإرشاداته صدرت هذه المجموعة

.

تقديم

د. عبد الناصر عيسوي

هذه هي الطبعة الثانية من المجموعة القصصية الأولى للكاتبة السورية المقيمة في فيينا «ماري تيريز كرياكي»، تضمُّ أربع عشرة قصة من بواكير كتابتها القصصية، آثَرَتْ أن تنشرها بوصفها بداياتها الحقيقية، أعقبها مجموعات أخرى، لأنها أديبة صاحبة رؤية إنسانية، تحمل قضايا الإنسان المعاصر وكأنها مسئولة عمَّا يحدث له. وإذا كان الأديب صاحب قضية إنسانسة فلن ينتهي ممَّا هو فيه، ولن تفرغ جعبته من قضايا الإنسان المعاصر، المعذَّب أينما كان.

تكتب ماري تيريز بسلاسة معهودة؛ كما في قصص المجموعة كلها، بل يظهر ذلك في أشدِّ القصص مرارة. وقد عاشت الكاتبة أجواءً عربية وغربية جعلت لها تركيبة فكرية هي مزيج منهما، فقد عاشت طفولتها ونشأتها في دمشق، وكتبت قصص هذه المجموعة في فيينا حيث تعيش منذ سنوات، فهي تنظر إلى فترة النشأة بعين خبير؛ يُعيد رؤية الأشياء من جديد، على الرغم من حميميَّة الذكريات التي عاشتها في بلدها الأول.

إنها مهمومة بقضايا الإنسان العربي، وبالتركيبة الاجتماعية فيه، وبعُقد الخوف والنقص فيه؛ والتي أوصلته إلى حالة ميئوسٍ منها في بعض الأحيان؛ كما في قصة «سوريالية»، حيث إن قمَّة ما يمكن أن يفعله المثقف من أبناء بلدها في أبهى الأماكن الفنية وفي قمَّة إحساس الإنسان بالفن هو أن يقوم بقضاء حاجته، وهو ما يمكن إسقاطه على السلوك العربي في مقابل الحضارة الإنسانية العالية.

وهذا ليس هجاءً لأبناء بلدها، بل إنها أبعد ما تكون عن ذلك، فإنها تمدح بلدها الأول، وتتعاطف مع أبنائه، وترى فيهم القدرة على استيعاب التنوع الديني، وخصوصًا بين المسلمين والمسيحيين، كما في قصتها «الزَّمن الجميل». لكنها تحاول في قصصها الأخرى أن تُكمل الجانب الخفيَّ من تكوين هذه الشخصية العربية، التي تسيطر عليها حالة الخوف وتُلازمُها، حيث الإحساس بالمسافة الشاسعة بين أفراد الشعوب وحُكَّامهم القمعيين، بل قد يصل الأمر بالإنسان إلى الموت خوفًا؛ كما في قصة «ذهب ولم يعُد». بل إن تصرفات الحكَّام البوليسيين غير الإنسانية وغير المبالية قد تضع الإنسان في أقصى درجات الخوف، وربما تكشف قصة مثل «مكتب الآداب» تصرفات بعض رجال البوليس غير المسئولة، حيث يبحثون عن راحتهم في مقابل التضحية بسُمعة الآخرين، بل قد تؤدِّي تصرفاتهم إلى الخوف من المجهول.

لقد بلغت مطالب الدكتاتوريين إلى درجة الاستحالة، بحيث لا يمكن للبشر أن يتعايشوا معها، ولا يمكن لهذه المطالب التحقُق، لأنها تحاول التلصُص على أخَصِّ خصوصيات الإنسان، بل قد تصل إلى منعه من الأحلام، كما نجد ذلك في قصة «البلاغ رقم...».

لقد وضعتنا المؤلفة في وضع التعاطف الحقيقي مع المظلومين من ضحايا النُّظم الدكتاتوية التي تتخذ من التعذيب وسيلةً لحكم البلاد، فالمساجين يقبعون في سجون تحت الأرض، ولديهم الأمل في وجود من يُخرجهم من سجونهم، كما في قصة «المنطقة الرمادية»، لكن يأتي صوتُ الأمِّ ليُنبِّهَنا إلى وجودهم تحت الأرض كالموتى، وتطلب عدم إصدار الأصوات بالقرب منهم، حتى لا نعطيهم الأمل في الحرية، فهذا بعيد المنال، ووضعُهم ميئوسٌ منه، فكأننا ندوس على رفات الموتى ويأتي صوتها قائلاً مع أبي العلاء المعرِّي: «خَفِّفِ الوطء». لكنهم أحياء وضعتهم أنظمتُهم في غياهب الظُلم.

لم تقتصر الكاتبة على إبراز هذه الجوانب الإنسانية شديدة المرارة فحسب، وإنما قامت بفضح الدكتاتوريات المبنيَّة على الشعارات الفارغة، حيث النضال الشكلي والشعارات الجوفاء ومقابلة المناضلين والمناضلات من أجل إعطاء صورة مغلوطة عن وضع هذه النُّظُم، كما في قصة «ما في حدا أحسن من حدا»، حيث النضال الفارغ من

المضمون، أمام مجموعة من المناضلات الفيتناميات اللاتي حضرن لرؤية مشاركة المرأة الرجل في الكفاح ضد العدوان الخارجي، فكانت هناك إجراءات شكلية على طريقة هؤلاء الفارغين، حيث قاموا بجمع بعض فتيات المدارس اللائي لم يحملن السلاح من قبل، وطلبوا منهن الرّماية بالكلاشينكوف والآربيجيه، وقد عاشت الفتيات لحظات عصيبة مع هذه الأسلحة الفتاكة، التي كادت تفتك بهن.

اهتمَّت الكاتبة بالبُعد الاجتماعي للشخصيات التي الْتَقتْ بها في فترة نشأتها، والتي عايشتها، ومن أهمِّهم الأم، حيث صوَّرت أمًّا شرقية مكافحة، كانت رمزًا للتضحية في سبيل تربية أبنائها أو بناتها، كما في قصة «الفستان الأزرق»، حيث كانت الأمُّ تتفنَّن في قِصص التضحية بنفسها وبأشيائها وبطعامها في سبيل أبنائها.

وقد توسَّعت الكاتبة في رؤيتها للإنسان بشكل عام، حيث نرى الشاب الأفغاني في قصة «فارس هذا الزمان» يُمثل النُّبل الإنساني الذي يُداوي الخوف غير المبرَّر من الإنسان، لتُرينا أن الاحتكاك بالإنسان والاقتراب من إنسانيته كفيلان بالقضاء على النظرة التقليدية الموروثة عنه، فرؤية الجانب المضيء منه يُمكن أن تُعيد تشكيل رؤيتنا له.

وقد اتخذت المؤلفة طريقة أخرى في كتابة قصة «غزّة في القلب»، حيث سجَّلت مشاهداتها أو يومياتها في رحلةٍ إلى هناك، حيث الإحساس العالي بالكرامة، وسط إذلال

الإسرائيليين لإنسان غزة؛ الذي هو صاحب الأرض. وتستمر المؤلفة في سرد مشاهداتها.

كما أن البُعد النفسي كان غالبًا على كثير من قصص المجموعة، حتى تدخَّلت الكاتبة أحيانًا بالتحليل النفسي لبعض الشخصيات تحليلاً دقيقًا، كما في قصة «خالتي أُمّ بشَّار»، أو كما في قصة «تِربايةَ مَرَة»، كما قامت بتحليل شخصية الانتهازي في قصة «فاصل قصير».

في كل قصص المجموعة تظهر السلاسة في كتابتها، والانسيابية التي تصل إلى درجة العفوية، حتى ظهرت بعض الألفاظ والتعبيرات العامية الشامية، بل ظهرت في عناوين بعض القصص، مثل «تِربايةَ مَرَة»، و«ما حدا أحسن من حدا»، وهي تعبيرات تأخذ شكل التعبيرات الاصطلاحية أو بعض الأمثال الدارجة. كما احتلَّت لغة الحوار بالكامل كما في قصة «ترباية مرة»، حيث الأم البسيطة التي تتكلم على سجيَّتِها لتنقل لابنتها خبرتها الخاصة، وبلغتها الخاصة.

لا أريد أن أقطع على القارئ استمتاعه بقراءة هذه المجموعة، ودخوله إلى أجوائها، فقراءة النص نفسه كفيلة بالوصول إليه.

سوريالية[1]

حَطَّ الفنانان رحالهما في عاصمة النور؛ باريس، المكان الذي يحلم معظم فناني العالم بزيارته أو الدراسة أو العيش فيه... أُصيبا بصدمة حضارية، فقد كانا يسكنان في مدينةٍ سورية عُرِفت بمحافظتها الشديدة على العادات والتقاليد، حتى ليُخَيَّل للمرء أن حال هذه المدينة لم يتغير منذ نشأتها... وهبطا في مدينة تعج بالحياة، مليئة بالمتناقضات، والجمال، وكل أنواع الفنون، موسيقى وغناء وفن تشكيلي.

أراد الفنانان التعرف على الأوبـرا، فقرَّرا حضور أحد العروض، ونظرًا لغلاء ثمن البطاقة اضطرا للعمل شهرًا كاملاً لدفع ثمنها، وقاما بتوفير المبلغ بقطع كل المصاريف الزائدة بما فيها التوفير في وجبات الطعام، كانا يتناولان الموز طوال اليوم لأنه من أرخص ما يمكن تناوله من مأكولات.

وجاء اليوم الموعود، وأمضيا ساعات في محاولة ارتداء اللباس الرسمي لحضور العرض...

---

١ سوريالية: هي اختصار كلمتين: سريالية + سوريا.

دخلا صالة دار الأوبـرا مبهوريْن بفن العمارة وبأناقة الحضور، لقد حصلا على مكانين رائعين في وسط الصالة، مواجهيْن تمامًا لمنصة المسرح، وفرحا بالمكانين، وكان صف مقعدهما يضم ما يقارب مائة كرسي، وهما في الوسط.

ابتدأ العرض... والناس جمود، لا حركة، حتى ولا نفس... وبعد حوالي نصف ساعة أحسَّ أحدهما بأن معدته تؤلمه وبأنه يريد الذهاب إلى المرحاض. حاول الضغط على نفسه فهو لا يريد أن يزعج ما يقارب الأربعين شخصًا لكي يذهب إلى المرحاض... ومع مرور الدقائق زاد الأمر صعوبة، وبدأ يتململ، ويتحرك في مقعده، يتلفت يُمنةً ويُسرة، مما أثار حفيظة مَن حوله من الحضور... لكنه لم يعد يستطع الانتظار، وقال لرفيقه بأنه مضطر لإزعاج الناس لأنه لم يعد باستطاعته التحمل أكثر من ذلك.

اضطر الناس للوقوف متأففين لكي يعبر صديقنا... وركض خارج الصالة إلى الممر الخارجي، محاولاً بيأس إيجاد مكان المراحيض، وأعاق حركته السريعة البساط الأحمر بين الممرات والذي غرقت قدماه فيه... وبدأ بفتح الأبواب التي صادفها لعله يجد المكان الذي يريده... فتح الباب الأول فوجد أُناسًا جالسين في الصالة، وفتح آخر فوجد ملابس معلقة، وفتح الثالث فوجد ممثلين... وكاد ينفجر... إنه لا يشم أي رائحة للنشادر لتدله على المراحيض، ولم يعد

بإمكانه تمالك نفسه... ووجد ركنًا مُعتمًا في طرف الممر ينيره ضوء خافت جدًّا لا يمكن لأحد أن يرى شيئًا من خلاله، فقرر صديقنا أن يدخل إلى هذا الركن المعزول ويقوم بقضاء حاجته... وأحسَّ بعدها براحة كبيرة.

عاد الفنان من جديد إلى صالة الأوبرا، ووقف الأربعون شخصًا من جديد ليسمحوا له بالمرور، وجلس في مقعده، وسأل صديقه عَمَّا حصل في غيابه، قال له صديقه:

– لم يحصل أي شيء مهم، فالبطل مازال يغنِّي حاملاً غيتاره، والبطلة مازالت تركب الأرجوحة وترد عليه غنائيًّا في عشية رومانسية في طرف المسرح...

وتابع كلامه قائلاً:

– لكن يا أخي هؤلاء الفرنسيون عندهم سوريالية عجيبة غريبة، ونحن العرب لا نفهمها... تصوَّر، حصل شيء ما فهمتُه، خلال المشهد، ظهر شخص في الركن المعتم الآخَر من المسرح وقام بقضاء حاجته، ولم أتمكن من فهم علاقة هذا الشخص بمشهد الأوبرا الرومانسي.

مكتب الآداب

رنَّ جرس الهاتف في المكتب، ورفعت سلوى السمّاعة مُجيبة:

- مكتب الأستاذ «نعمان»، صباح الخير.

ردَّ صوت رجل قائلاً:

- صباح الخير، هل حضرتك سكرتيرة السيد نعمان، السيدة سلوى رمضان؟

- نعم.

- أنا النقيب «علي أحمد»، في الداخلية، حضرتك مدعوة للمثول أمام مكتب الآداب في ساحة الجمارك، الرجاء الحضور غدًا في الساعة العاشرة صباحًا. مع السلامة.

لم تتمكن سلوى من وضع سماعة الهاتف في مكانها بسهولة؛ إذ كانت ترتجف، جفَّ حلقها، وبالكاد تمكنت من الجلوس. أصابها دوار ولم تستطع أن تتمالك نفسها. أيُعقل أن مكتب الآداب يطلبها! ماذا فعلت؟ ولماذا هي؟ لم يمضِ على وجودها أسبوعان في هذه الوظيفة؛ هذه الوظيفة التي انتظرتها لأكثر من سنتين.

عادت بذاكرتها إلى يوم نجاحها في الثانوية العامة، ذلك اليوم الجميل، يوم وعدت نفسها في حال حصولها على الشهادة أنها ستبحث عن عمل لكي تساعد أمها التي أرهقت نفسها في سبيل عِيالة أطفالها بعد وفاة زوجها... وفعلا بدأت سلوى بالبحث عن عمل، وقدَّمت الطلبات إلى كل مكاتب التوظيف والدوائر الحكومية والمكاتب الخاصة... و كان الرد دائمًا بالاعتذار، تارةً لعدم توفر سنوات الخبرة، وتارةً لصغر سنها... إلخ.

وبعد سبعة أشهر من البحث المستمر والسؤال؛ عثرتْ سلوى على ضالتها، إذ دُعيت إلى إحدى المكتبات مع خمسة أشخاص آخرين لمقابلة صاحب المكتبة... وصلت إلى المكتبة في الموعد المحدد وقابلت الأشخاص المدعوين، وجلس الجميع في صالة كبيرة للاجتماعات... وجاء مدير المكتبة وعرض على الجميع المطلوب منهم، وهو العمل على تسويق الموسوعة الفرنسية التي هي عبارة عن عشرة مجلدات. ثم بدأ بشرح محتوى هذه المجلدات وكيفية البحث عن المعلومات فيها وكذلك شرح طرائق عرض هذه الموسوعات للبيع، وكيفية التعامل مع المشتري، حتى أنه شرح لهم كيفية تحكم البائع بملامح وجهه، وحركات يديه، وكيفية النظر إلى عيني المشتري للتأثير عليه... وشرح لهم كيف أن فن البيع أصبح عِلمًا، وعليهم التمكن منه... وفي

أخر اللقاء، تم الاتفاق معهم أنه في حال قيامهم ببيع أي مجموعة فستكون حصتهم خمسة بالمائة.

فرحت سلوى وأخذت الكتب المخصصة للعرض وطارت إلى الشارع، وفكّرت أن عليها التركيز وإعداد قوائم بعناوين المكاتب والمدارس والدوائر التي تعتقد أنها ربما تهتم بشراء الموسوعة... ذهبت إلى منزل صديقتها «مُنى» التي لديها هاتف ودليل للهاتف لتأخذ منه العناوين... وبعد نهار كامل من العمل المتواصل كان لديها لائحة بالمعلومات المطلوبة.

لم تُوفق في بيع أي مجموعة، لا في الاسبوع الأول، ولا في الشهر الأول، ولا في الثاني، ولا في الثالث... ولم يعد لديها ما يكفي من المال لكي تأخذ المواصلات العامة في تنقلاتها، ولم تكن تريد أن تُحمِّل أمها عبئًا آخر بطلب المال منها، فقررت الذهاب سيرًا على الأقدام من عنوان إلى آخر... ومضى الشهر الرابع فالخامس فالسادس ولم تقم سلوى ببيع أي موسوعة... وقد جلست في إحدى المرات على الرصيف بعد أن أعياها التعب والجد وبدأت بالبكاء... نزعت حذاءها لترى لماذا تؤلمها رجلها فتبين لها أن الحذاء قد ثُقِب من كثرة الاستعمال مما زادها حُزنًا وبكاءً.

قرَّرت سلوى إعادة كتب العرض للمكتبة بعد فشلها في بيع أية موسوعة، واعتذرت للمدير وغادرت المكان عائدة إلى منزلها.

حين وصلت إلى حارتها قرب المنزل، ناداها بائع الحلويات لترد على الهاتف عنده... سارعت سلوى إلى الرد وكان المتصل مكتب التوظيف ليعلمها أن هناك وظيفة شاغرة لدى شركة «داغر»، وأعطاها العنوان والتوقيت الذي يجب أن تكون فيه في الشركة...

ركضت سلوى لتزف البشرى لأمها، التي فرحت من جهة وخافت من جهة أخرى، إذ إنها لم تسمع بهذه الشركة من قبل، وقرّرت الذهاب مع ابنتها في اليوم الثاني إلى المقابلة لترى كل شيء بعينيها.

أُعجبت كل من الأم وسلوى بالشركة الكبيرة وبالمدير، وكذلك أُعجب المدير بسلوى، واستلمت العمل مباشرة.

وبعد أسبوعين جاءها الهاتف المشئوم... ماذا ستفعل؟ وهل ستذهب لهم برجليها؟ أم تترك العمل؟... والسؤال الأهم: لماذا طلبوها؟

عادت حزينة إلى المنزل والدموع تغلبها، ولم تستطع أن تخفي عن أمها ما جرى وروت لها القصة.

بدت ملامح القلق على وجه الأم، وبقيت صامتة، سارحة في أفكارها... ثم ما لبثت أن سألت ابنتها:

- هل لديكِ أية مشكلة مع أحد من زملائك؟

أجابت سلوى بالنفي، وسألت:

- لماذا؟

– ربما يكون أحدٌ ما مستاءً من تصرفك تجاهه فكتب فيكِ تقريرًا لإزاحتك أو لإزعاجك.

– ماذا يعني تقرير؟

– التقرير هو ما يكتبه المُخبر أو ضعيف النفس، مدّعيًا فيه على شخص ما بوجود ممنوعات لديه، أو بإدعاء قيامه بعمل غير قانوني أو حتى قانوني ولكن غير مُحبّب للمسئولين، فيقوم جهاز المخابرات باعتقال من كُتِب فيه التقرير... أما حكاية فرع الآداب، وخاصةً لفتاة مثلك؛ فالمقصود منها تدمير سُمعة هذه الفتاة.

ازداد حزن سلوى وبكاؤها... حاولت الأم التخفيف عنها ومواساتها... بعدها قررت الأم الذهاب إلى جارها اللواء محمود بيك لعرض المسألة عليه ولأخذ نصيحته... استقبلها اللواء بكل ود واستمع لقصتها، والتي أنهتها بالقول:

– وأنت كما تعلم يا سيادة اللواء، نحن لا ظهر لنا، ولا رجُل يسندنا ويحمينا ... فما العمل؟

قال اللواء:

– لا تهتمِّي جارتنا، سأذهب معكم غدًا إلى الموعد، وسأحاول جاهدًا المساعدة.

في اليوم الموعود ذهب الثلاثة إلى مكتب الآداب... ولدى دخولهم المبنى راعهم الازدحام، المكاتب والممرات

مليئة بالنساء والرجال؛ نساء حوامل ترتجفن من الرعب، وصبايا أعينهن في الأرض، ونساء تعملن في الشوارع وتلبسن الملابس ذات الألوان الفاقعة... أما الرجال فمنهم المرعوب والفاقد لأعصابه والشاحب اللون، ومنهم من يريد الانقضاض على المرأة التي بصُحبته، ومنهم من يحاول تهدئتها.

بدأ الموجودون بالتحدث والتعارف، فهذا الطبيب وزوجته الطبيبة، وهذه المهندسة وهذه مدرسة وهذه طالبة؛ نساء من كل أطياف المجتمع الدمشقي... والجميع ينتظر الساعة العاشرة لكي يفتح باب الدائرة الخاصة بالآداب.

تقدَّم اللواء وسلوى وأمها خلفه، طرق الباب وعرّف بنفسه، ففُتح باب المكتب... قام اللواء بعرض القصة على الموظف وطالبه بالتوضيح وبالسؤال عن السبب الذي دعاه لاستدعاء سلوى إلى هذه الدائرة... فما كان من الموظف إلا أن ضحك وقال:

- الحقيقة يا سيادة اللواء نحن بصدد نقل مكاتبنا، وأنت تعلم بأن سجلاتنا كبيرة مثل دفاتر السمانة، ولم يكن باستطاعتنا الذهاب كالعادة إلى دوائر التوظيف في الدولة والشركات الخاصة لنعطيهم كالعادة صك براءة الذمة لهؤلاء النساء وبأنهن ليس لديهن مخالفات أخلاقية... فقلنا لنرتاح مرة في هذا العمر، ولنطلب منهن المجيء لكي يأخذنَّ الأوراق

اللازمة لشئون الموظفين في دوائرهم... (إيه سيدي خليهم يحملوا عنا كتف... مو بدهم مساواة؟).

الـزمـن الجميـل

تُفاجئك دمشق، الجميلة، الغافية على كتف «بردى» بحميميتها... مدينة لا يمكن لك أن تحسّ فيها بالغُربة، فهي قادرة على استيعاب كل عابر بها وساكن فيها، تُذيبه في حناياها وفي نسيجها الاجتماعي... دِفؤها يجعلك تشعر وكأنك قد عُدتَ إلى حضن عائلتك، ورائحة ياسمينها وليمونها وبنفسجها وورودها وتوابلها تعشِّش في ذاكرتك... كل ذلك على الرغم من تقسيم حاراتها الغريب؛ والذي قد يتناقض مع عدم إحساسك بالغُربة، فهناك حارة لكل قومية، فمثلاً، فيها حارات للأرمن، والمغاربة، والشركس، والأكراد، وكذلك حارات لكل طائفة، فـ«العمارة» للسُّنة، و«الأمين» للشيعة، و«القشلة» لليهود، و«باب توما» للمسيحيين.

سكنتُ وعائلتي في حارة «العمارة» تمامًا على حدود «حارة باب توما». وكما كان لكل حيٍّ مرشد روحي، كان الشيخ «محمد» المُرشد الروحي لحي العمارة، وكان هو صاحب الكلمة العُليا مع عقيدها المشهود له بالاستقامة والأمانة.

كان في حارتنا أربعة بيوت مسيحية فقط، وكان حُكم شيخها في القضايا الحياتية يسري أيضًا على هذه البيوت. وشيخنا كان رجلاً ورعًا ومستقيمًا، أمَّا من ناحية الشكل فكان قصير القامة ونحيفها. وكذلك كان أبونا «حنا»؛ كاهن حارة باب توما؛ مشهودًا له أيضًا بالورع والاستقامة. أما من ناحية الشكل فكان عكس شيخنا محمد فهو طويل وسمين، وكل منهما كان له وجه مورد يفوح بالسلام.

جمع حُبُّ «طاولة الزهر» ما بين الشيخ والكاهن، فكانا يلتقيان مساء كل خميس للعبها، حيث تبدأ بحماس يتزايد مع كل ضربة حجر. وكان جمهور كبير يشهد اللعبة وينقسم إلى فريقين، يشجع كل واحد منهما واحدًا من اللاعبين. ومع مرور الأيام، اتفقا على لِعب «المحبوسة» مع حق الخاسر الأول بدورة أخرى، وفي حال التعادل لعب دورة ثالثة تكون الفاصلة، وتحدِّد الفائز لتلك الليلة.

وتحولت ليالي الخميس إلى ليالٍ ساخنة ما بين الشيخ والكاهن من جهة وجمهور الحارتين من جهة أخرى، فالكل مترقب، فقد تحولت هذه المباراة بين الاثنين إلى حرب طاحنة، لا تنتهي في ليلتها بل تنسحب آثارها على مدى الأيام الثلاثة التي تليها. فإن خسر الشيخ خصَّص ثلاثة أرباع خطبته في اليوم التالي، الجمعة، للحديث عن هؤلاء الكفار واحتفالاتهم الغريبة بأعيادهم وأنهاها بـ(اللهم لا تؤاخذنا بما فعل السُّفهاء منا). أمَّا إذا خسر الكاهن فتتحول ثلاثة أرباع

خطبة قداس يوم الأحد إلى انتقاد المسلمين وأعمالهم لتنتهي بحثِّ أبناء الحارة على عدم الاختلاط بجيرانهم المسلمين.

ويأتي يوم الإثنين، وتبدأ النفوس بالهدوء، ويحاول بعض الناس الاصطياد في الماء العكر، ويقومون بأخذ الشيخ على حدة وينتقدون الكاهن الذي لم يعد يستحي، فتثور ثائرة الشيخ قائلاً لهؤلاء:

– كيف تتجرأون على التفوه بما لا يجوز عن صديقي؟

وحين يجيبه الشخص قائلاً:

– ولكنك أنت يا شيخي من تكلَّم عنه بالسوء بداية.

فيرد الشيخ:

– أنا الوحيد المسموح له بانتقاد الكاهن، وليكن في علمك وعلم الآخرين أن من سيتجرأ على فعل ذلك منكم سينال مني الجزاء الذي يستحقه.

أما في يوم الثلاثاء فقد كان الشيخ والكاهن يخصصانه للتباحث في شئون الرعية، ولتبادل الآراء وللمساعدة في حل الأزمات والخلافات. وأما الأربعاء فكان يوم النُّزهة في الغوطة، حيث يقوم الشيخ والكاهن مع بعض الأصدقاء بإعداد لوازم «السيران»[1]، من تبُّولة ولحمة مشوية للجميع، وكاس عرق لـ«الخوري»[2] فقط.

١ السيران: نزهة إلى الحقول لدى الشوام.
٢ الخوري: رجل الدين المسيحي.

مضى أكثر من عشرين عامًا على صداقة الاثنين التي كانت حديث القاصي والداني، إلى أن جاء يوم لم يظهر فيه الكاهن في الحارة، وكان ذلك يوم الثلاثاء وهو يوم المباحثات. وحين حلَّ ظُهر ذلك اليوم ولم يظهر الكاهن، أرسل الشيخ محمد شابًّا من الحارة إلى باب توما للسؤال عن أبينا حنا، وجاء الخبر المشئوم إلى الشيخ، فقد نام أبونا حنا ولم يستيقظ، ولما حاولوا إيقاظه تبين أنه قد توفي أثناء نومه.

عمَّ الحزن الحارتين، وأصيب الشيخ محمد بكآبة كبيرة، وعزف عن لعب الطاولة والذهاب إلى الغوطة، وغرق في حزن شديد. ثم لم يلبث أن توفي الشيخ محمد بعد شهر واحد من وفاة صديقه الكاهن حنا.

خالتي أُمُّ بشَّار

كانت خالتي «أُم بشَّار» امرأة فارعة الطول، ذات وجه طفولي الملامح، تبرق فيه عيناها الجميلتان وكأن وجهها كله عيون، بشرتها بيضاء مشربة بحُمرة خفيفة وشعرها أسود. عندما رأيتها للمرة الأولى كانت هي من ناداني من على سطح منزلها قائلة:

– يا بنت، كيفك؟ أنا خالتك أم بشار.

خالتي أم بشار، أم لسبعة أولاد، بسيطة، وساذجة، تُصدِّق كل ما يقال لها، ويُشاع في الحي أن الحجاب مكشوف عنها، ولها شخصية شفافة لا تعرف الحقد ولا الكره، وهي تحب كل الناس.

صباح كل يوم، كانت نساء الحارة تتجمعن في بيت واحدة منهن بشكل دوري ليتناولن الإفطار معًا (الصبحية)، وكانت خالتي أم بشار زينتهن. بعد الإفطار يبدأ العزف على الطبلة ويبدأ الغناء والرقص، وهي على رأسهن، وتنتهي الجلسة دائمًا بقراءة خالتي لفناجين القهوة.

ذات يوم، دُعيت أمي لزيارة خالتي على الصبحية وأخذتنا

معها أنا وأختي. وتوافدت النساء على التوالي، مغمسات باللباس الأسود من رأسهن إلى أقدامهن، بالملايات، وكأنهن سقطن في دواة الحبر الأسود. وحين خلعن الملايات السوداء، ظهر تحتها أجمل نساء الأرض بفساتينهن الجميلة الملونة الزاهية التي تبعث على الفرح والبهجة، وتحتها سراويل بيضاء من القطن تصل إلى الركبة، تظهر بعد جلوسهن على الأرائك، متربعات كاشفات أرجلهن على شكل رقم سبعة (٧)، فبدَوْنَ بالنسبة لي كمنظر الفراشات البيضاء التي تجمعت على ورود الحديقة.

بعد الفطور، قامت خالتي أم بشار بقراءة فناجين القهوة، وهي عادة حرصت عليها نساء الحارة، فخالتي كما أوردت سابقًا مكشوف عنها الحجاب، وهي تعرف ما كان وما هو حاصل وما سيكون، ولا يمكن لأي امرأة أن تخفي شيئًا عنها.

ولطالما أثارتني شخصية خالتي، فهي قد تزوجت في التاسعة من العمر؛ من رجل يكبرها بثلاثين عامًا، وكان لزامًا عليها أن تبقى في بيته وبين أطفال دار العائلة إلى بلغت الثالثة عشرة من عمرها. لم تفهم ماهية ليلة الدخلة فكانت صدمتها كبيرة، خصوصًا حين أُغلق الباب عليهما. وكانت تلك الليلة أشبه ما تكون بليلة اغتصاب تحت مسمى الزواج. لا شيء يجمعها بهذا الرجل، سوى أنه الآمر الناهي وعليها الطاعة.

بدأت خالتي تعاني من نوبات صداع تدفعها للانعزال عن أهل الدار. مضت سنتان على دُخلتها ولم تحمل. وبدأت الضغوط تتزايد على زوجها من قِبل الأهل مطالبين إياه بتطليقها، فهي بحُكم العاقر بالنسبة لهم خصوصًا أنهم قد أخذوها للفحص عند أشهر الأطباء.

دخلت خالتي في دوامة من الحزن واليأس، وعانت من نوبات الصداع، وبدأت ترى أشخاصًا وهميين، وأهمهم الجنيّ الذي أحبها وهو باعتقادها من يعمل على إبعادها عن زوجها لأنه يحبها ويريدها لنفسه. سبع سنوات أخرى مضت ولم تحمل. لجأت خالتي إلى عالمها الخاص، وإلى أوهامها، وإلى الجن الذين يقومون بحمايتها من كل أذى قد يسببه لها المحيطون بها. خلق هروبها لديها إحساسًا بالأمان، فالجني الذي يحبها ينتمي إلى عالم الأخيار ولا يؤذي، ولولاه لأصيبت بالجنون، فهي تعيش حالة انفصال كامل عن واقعها، ولا أحد يحس بها أو بما تعانيه، وهمُ أنقذها من الانهيار، وحماها من واقع فُرض عليها.

ازدادت الضغوط على زوجها لتطليقها، وفي اليوم الذي قرر فيه محاباة أهله، أُصيبت أم بشار بدوخة ووقعت على الأرض. أتى طبيب العائلة وقام بفحصها، وخرج فرِحًا مُبارِكًا زافًّا البُشرى: (إنها حامل).

لم تُصدِّقها نساء العائلة، بل اعتقدنَّ أنها قامت بهذه

الحركة لتمنع زوجها من تطليقها، لكن زوجها آثر الانتظار... وجاء بشار، وتلاه خمس بنات وصبي آخر.

الضيف الجديد

وصل... وانتشر الخبر بسرعة البرق. تراكض الجميع رجالاً ونساءً وأطفالاً في محاولة يائسة لرؤيته، وتزاحمت الأسئلة: كم حجمه؟ مربع أم مستطيل؟ كبير أم صغير؟ بُني أم أسود اللون؟ أله أرجُل أم عجلات؟ أله قاعدة ليوضع عليها أم خزانة ليوضع فيها؟ عجيب أمر هذا الجهاز، هل يشبه صندوق الدنيا أو أنه يقوم بمهام الحكواتي؟ والسؤال الأهم: كيف يدخل الناس فيه عبر سلكه الموصول بالكهرباء؟!

لقد تمكَّن جارنا أبو بشار من شرائه، طبعًا فهو تاجر وغني وإن لم يشتره هو فمن يستطع شراءه.

أبو بشار دمشقي أصيل، متزوج وله خمس بنات وصبيان، طيب القلب ولكنه متزمت، ويصفونه بالشامي الـ«سريست»، ولذلك لم يسمح لبناته بإكمال تعليمهن، وكان رأيه: (يكفيهن الابتدائية لفك الخط)، فالذهاب إلى المدرسة يوميًّا برأيه قد يجلب المشاكل، حيث من الممكن أن يتعرفن على أحد الشبان، ونظرة فابتسامة فحب، لا، (لحد هون وبس)، الأفضل له ولهن البقاء في المنزل و(يا دار ما دخلك شر).

وكان من الطبيعي ألا يسمح لأي من الأصدقاء بزيارته، فقط السيدات وحدهن يمكن أن يدخلن حرمه. وبعد مجيء التلفزيون، كان كرم أبو بشار كبيرًا بحيث سمح للسيدات بحضور الفيلم العربي الذي يُعرض مساء كل يوم جمعة.

تجتمع سيدات الحارة ما بين عشرين إلى ثلاثين سيدة، ويصل عدد الأطفال أحيانًا إلى خمسين ويفترشون كل الفراغات، المقاعد والكراسي والأرض. ولحضور الفيلم طقوس، إذ تقوم السيدات بإحضار بعض الأطباق من طيبات الطعام، إضافة إلى خمسة كيلو بذر، وشاي وسكر وقهوة. ولكي يكون الفيلم مقبولاً من الجميع يجب أن يكون البطل وسيمًا وأن يقوم بالغناء وأن ينتهي الفيلم نهاية سعيدة.

كان لأبي بشار كنبة خاصة به لا يجرؤ أي منا على الاقتراب منها أو الجلوس عليها، كما كان هو الوحيد المسموح له بتدخين الأركيلة.

وحدها خالتي أم بشار لم تصدِّق أن المذيع أو الممثل لا يمكن له رؤيتها، وبقيت إلى أخر أيام حياتها تضع غطاء رأسها لكي لا يراها أي من الرجال الذين يظهرون على الشاشة. وعبثًا ذهبت جهود الجميع لإقناعها بعكس ذلك.

يبدأ الفيلم في الساعة الثامنة والنصف، ولا يلبث أن يُقطع في التاسعة لتقديم نشرة الأخبار، التي تطول لتضمنها

عرض إعادة لخطاب الرئيس، فيتمكن بعض السيدات من حفظ مقاطع كاملة منه لكثرة ما عُرِض. أما نحن الأطفال فكنا ننام ونصحو سائلين إن كانت نشرة الأخبار قد انتهت. وبعد ساعة أو ساعة ونصف تنتهي النشرة ونعود لمتابعة عرض الفيلم الذي ينتهي بدوره حوالي منتصف الليل.

جارنا «أبو محمود» إنسان فقير، متزوج، وليس لديه أطفال، لكنه على موعد يومي لعَركةٍ مع زوجته. وزادت الأمور سوءًا بعد أن جاء التلفزيون إلى حارتنا، إذ دبَّت الغيرة في قلب أم محمود، وحلفت بعد عركة كبيرة أن لا تعود لأبي محمود إلا بعد أن يشتري لها تلفزيون، وهذا ما زاد جنونه وحقده على كل من باستطاعته شراؤه. وكان ينتظر يوم الجمعة بفارغ الصبر، ليصب جام غضبه على من اخترع هذا الجهاز وعلى الأفلام العربية وعلى الممثلين، إنه الموشح الذي لا أول له ولا أخر.

بقي أبو محمود على هذه الحال ما يقارب السنة، وازداد غضبه بعد أن اشترى آل المارديني تلفزيون. وانقسم الجمهور بين بيت أبي بشار وبيت المارديني، وأبو محمود مثابر كل يوم جمعة على نشر غسيل الجميع من على سطح منزله.

ضاق صدر رجال الحارة، واجتمعوا مع شيخها شاكين له أبا محمود:

- شرشحنا، وما عاد استحى.

وتمنى الرجال على الشيخ أن يرشدهم إلى طريقة التعامل مع الرجل. قال الشيخ:

– يا أبنائي، الحل الوحيد هو أن تجمعوا ثمن جهاز تلفزيون وتشتروه وتقدموه له ليكف بلاه عنا وعنكم.

وهذا هو ما حصل فعلاً، اشترى الرجال الجهاز وقدموه هدية لأبي محمود. وبعدها، صالحته زوجته وعادت إلى المنزل. وانتظر أهل الحارة يوم الجمعة، ليذيقوا أبا محمود ما أذاقهم. وعندما قام برفع صوت التلفزيون عند مشاهدته للفيلم العربي، علت أصوات رجال الحارة من على الأسطحة:

– يلعن التلفزيون، واللي اخترعه، والأفلام العربي، والممثلين...

وردّدوا الموشح المعهود.

تِربـايـة مَـرَة

صرخت أمي في وجهي قائلة:

- ضُبّي رجليك وأنت جالسة، يعني حتى لو كنت لابسة بنطلون هذا ما بيبرر قعدتك متل الرجال.

ضحكتُ من كلام أمي، ولكن لم تلبث أن أضافت هي:

- ولازم تعرفي إنو البنت المؤدبة ما بتضحك بصوت عالي.

وتابعت:

- شوفي يا بنتي، واجبي كأم اليوم بيحتم عليّ أنصحك شوية نصايح، وإنتِ رايحة لأول مرة على جامعتك. هاي النصايح بتحطيهن حلقة بأذنك، اليوم رح تبدي مرحلة جديدة بحياتك، ورح تتعرفي على ناس من كل الأشكال والألوان ومن الجنسين. يعني رح تشوفي ناس من بيئات مختلفة ورح تحكي معهم. وفي منهم المناح ومنهم السيئين.

وأكملت:

- ومتل ما بتعرفي حبيبتي، الشباب بيكونوا بها العمر مندفعين وبدهم يوظفوا عواطفهم ومشاعرهم، وهادا شي طبيعي، وبهيك حالات ما بيكون الشخص المقابل مهم، يعني

إذا سمعتِ وأنتِ ماشية بالشارع تلطيش الشباب، أو إذا أصر واحد من زملائك إنو يحاكيكي، لا تردي، وفكري أنو الرجال بيركضو وراء النساء لثلاثة أمور: الجمال، أو المال، أو الحسب والنسب... وفكّري شو بتملكي من هاي المواصفات، وقتها بتعرفي ليش عم يلاحقك الشباب. هاي من جهة، ومن جهة تانية لازم تفهمي انو الرجال بيفكروا بعلاقتهم بالنساء بطريقة مختلفة عن ما منفكر نحنا النسوان بعلاقتنا فيهم، يعني إذا قدر رجال منهم انو يسلم على مرا، بيروح تاني يوم ليتفاخر قدام رفاقه وبيقول إنو باسها، أما إذا باسها فعلاً، بيقول إنو نام معها. مشان هيك الله يرضى عليك يا بنتي لا تجيبيلنا وجع الراس، ولا تسمحي لحدا بتعييري ويقول «هاي ترباية مَرَة».

مرَّت السنوات وبقيت كلماتها «ترباية مَرَة» عالقة في ذهني، وفهمت مع الوقت علاقة هذه الكلمات بالخوف، الخوف الذي لازم حياتنا لكوننا نسكن بمفردنا دون وجود لرجل، رجل يقف حاجزًا بيننا وبين المجتمع الذي نعيش، مجتمع يتعامل فيه مع إناثه بما هن ناس قُصَّر، يحتجن إلى من يدير حياتهن ويحميهن.

ما حدا أحسن من حدا

جاءت الحافلة المُزينة بكل أنواع الورود البلاستيكية، وصور الممثلات والممثلين، والشناشل، وبضع آيات قرآنية، وبضعة أقوال مأثورة... تسابقنا للصعود فيها، الكل يريد الجلوس قُرب النافذة ليتمتع بالهواء، فالجو حار وهذا طبيعي في شهر آب.

إنه وقت الذهاب إلى حقل الرماية. كنا عادة نذهب مرتين في السنة لنتعلم الرماية، وكذلك كنا نتعلم كيفية فك البندقية الفرنسية ٣٦ وتركيبها، ومن ثم نتمرن على الرماية على ما يسمى بـ«الدريئة»، وهي عبارة عن لوحة بيضاء تتوسطها دائرة سوداء، وعلينا محاولة إصابتها، ولكل واحدة منا خمس رصاصات.

تهادت الحافلة التي تحملنا وتمايلت على الطرقات المحفرة لدرجة أننا كنا نشعر بأي حصوة تأتي تحت دواليبه. كانت رحلة الذهاب إلى حقل الرماية من أجمل الساعات التي كنا نعيشها، وكأننا ذاهبات إلى «سيران». قام الضباط عقب وصولنا بتوزيعنا إلى مجموعات، يرأس كل مجموعة ضابط

ليحاضر فيها. ولم تكد الساعة تصل إلى الحادية عشرة حتى ساد جو من القلق. همهمات بين الضباط ومشاورات وارتباك. فهمنا بعدها، أن زُوَّارًا على درجة كبيرة من الأهمية قادمون لزيارتنا، وعلينا الانتظار.

وصل موكب الوفد الرئاسي، عشر سيارات سوداء يتقدمها رجال شرطة المراسم بدرّاجتهم النارية ولباسهم الجميل. وقف الموكب ونزل الوفد. تحلقنا حول السيارات وكانت دهشتنا كبيرة، فالوفد مكوَّن من النساء الآسيويات الجميلات الصغيرات الحجم، يرتدين نفس اللباس، فستان طويل بشقين على الجوانب وتحته بنطال من الحرير.

كنا في السابعة عشرة من العُمر، وقد نسينا الفساتين والملابس الأخرى، إذ إننا كنا نلبس اللباس العسكري الموحد منذ كنا في أولى إعدادي. لباس خاكي مكوّن من بنطال وقميص وكرافة وجاكيت طويل. كنا نلبس هذا الزي العسكري في المنزل والمدرسة والمشاوير والسينما، وكل مكان، ليلاً ونهارًا. كنت أضع كل مساء بنطالي بعد ترتيبه تحت الفراش لكي يحافظ على رونقه وكأنه مكوي... سنوات طويلة وأنا وزميلاتي نلبس الزيّ العسكري نفسه، تأقلمنا مع ذلك الزي لدرجة أننا كنا نعتبر كل نوع من أنواع من التبرج ما هو إلا محاولة للتشبه بالبرجوازيات... لذا بدت لنا سيدات الوفد وكأنهن قد قدمنَّ من القمر، ولشدة جمالهن تمنينا لو

نقوم بوضعهن كلِعب في خزائن من الزجاج للتمتع برؤيتهن.

لكن ما أثار استغرابنا، هو أن هؤلاء السيدات قادمات من فيتنام، هذا البلد الذي ارتبط في أذهاننا بالنضال ضد أعتى أنواع الاستعمار وأقساها، وأيضًا هُن من المناضلات اللواتي لم يتركن سلاحهن إلا بعد أن استقل بلدهن، وتعاملنَّ مع كل أنواع الأسلحة وخبرنها، من البندقية، ومرورًا بالدبابة، ووصولاً إلى الآربيجيه... إلخ.

في هذه الأثناء، كانت هناك حلقة نقاش حاد تدور ما بين النقيب والضباط والمدربات، يتشاورون على ما يبدو في شيء مهم، لم يطل الأمر عندما سمعنا صوت النقيب صارخًا:

– انتباه... اِسترح... يا بنات اليوم كما شاهدتن يزورنا وفد من الرفيقات المناضلات القادمات من فيتنام، هؤلاء السيدات الرائعات قدمن إلى هنا للاطلاع على تجربة المرأة السورية وطرق إعدادها لمواجهة العدو، أيًّا كان هذا العدو. ونحن هنا في تجمعنا هذا علينا القيام بإعطائهن صورة مشرفة عن المرأة السورية التي تشارك الرجل في كل مراحل النضال. ألا تُردْن ذلك؟ أريد سماع الردّ، ألا تردن ذلك؟

رددنا بصوتٍ عالٍ:

– نعم.

قال الضابط:

– المطلوب منكن التركيز والالتزام بالأوامر، والآن سنقوم

باختيار بعض منكن، لتقمن بعرض أمام ضيفاتنا الكريمات لاستعمال الأسلحة التي سنوزعها عليكن.

اُختيرت الفتيات ووُزِعنَّ إلى مجموعات، كل مجموعة يرأسها ضابط ليشرح لهن كيف سيستعملن السلاح الذي سيوزع عليهن... مجموعة تقوم بالرماية بالآربيجيه، ومجموعة ثانية تقوم بالرماية بالرشاش الكلاشينكوف... إلخ.

وكنتُ ممن وقع عليهن الاختيار لاستعمال الآربيجيه.

قال ضابط مجموعة الكلاشينكوف:

- هذا هو الكلاشينكوف، صحيح قد تجدونه كبيرًا ومعقدًا، إلا أنه لا يختلف كثيرًا عن البندقية الفرنسية ٣٦، كل هذه الآلات لها نفس المبدأ، علينا إمساكه بقوة والتصويب تمامًا كما كُنا نفعل بالبندقية باتجاه الدريئة وبكل بساطة إطلاق النار، بسيطة وواضحة، أليس كذلك يا بنات؟

قالت البنات:

- نعم.

صوَّبتْ الفتاة الأولى على الدريئة بدقة، ووضعت يدها على الزناد وأطلقت، ولم تتمكن من التوقف إذ من خوفها وعصبيتها جمد إصبعها على الزناد، وتتابعت الطلقات رشًّا، ويدا الفتاة تتأرجحان ذات اليمين وذات الشمال وإلى

أعلى وإلى أسفل. وصار الصراخ يتعالى، صراخ الفتاة من الخوف، وصراخ الضابط الذي كان يأمرها بإيقاف الضغط على الزناد... وأخيرًا تمكنت الفتاة من التوقف، وأخذ الضابط الكلاشينكوف وهو يشتم النساء والذي يقوم بتعليمهن، شاكرًا الله على أن الوفد لا يتقن العربية ليفهم ما يدور بيننا.

جاء دوري، نادى الضابط وقال:

- تقدَّمي وركِّزي على كلامي، الآربيجيه فيه طلقة واحدة، وهو ليس كالكلاشينكوف، يعني ليس هناك خوف من أن يحصل معك ما حصل مع زميلتك. اِركعي على رُكبة واحدة، وثبتيه على كتفك، وأمسكيه بقوة شديدة، وركِّزي نظرك على مُجسَّم الدبابة أمامك...

- أين هو المجسم؟

صرخ قائلاً:

- أمامك على سفح الجبل.

لم أتمكن من رؤيته بوضوح، فقد كنتُ أعاني من قِصَر النظر ولم أكن أعرف، ولكني لم أتجرأ على قول أي شيء آخر، فالضابط في أقصى حالاته العصبية، وربما كلمة منِّي تجعله ينفجر.

صوَّبتُ في الاتجاه الذي أشار الضابط إليه، وأطلقتُ، وألمٌ شديدٌ انتابني، لم أعرف ما أصابني، ولم أكن أعلم أن رد الفعل

قوي وأن هناك أمتارًا من النار صدرت عن هذه الآلة الرهيبة، وبدأتُ بالبكاء والصراخ من الألم. تقدَّم الضابط مني ونهرني بحيث جمد الدم في عروقي.

توقّف العرض بعدي، فقد خاف الضباط من حصول كارثة، واكتفوا بذلك.

ركبنا الحافلات وعُدنا إلى بيوتنا، وكلنا في حالة صدمة لما جرى.

فتحت أمي باب البيت، وشاهدتني بحالة يُرثى لها، عيوني حمراء من البكاء، وتساعدني صديقاتي في السير. جُنَّت أمي من الخوف، وسألت عما حصل؟ لم أتمكن من قول أي كلمة وإنما أشرت إلى كتفي... نزعت أمي ملابسي لترى كتفي، وراعها لون الجلد الأزرق، أخذتني على الفور إلى المشفى، حيث تبين أن هناك خلعًا في الكتف، وجرت عملية شدّه المروعة وإعادته إلى مكانه.

اتفقت أمي وأمهات صديقاتي على الذهاب في اليوم الثاني إلى المدرسة ليتقدمن بشكوى في الإدارة. وذهبت صديقاتي بصحبة أمهاتهن أيضًا... تحدثت أمي إلى المديرة مُبدية استغرابها وامتعاضها، إذ كيف يُزَجُّ بالفتيات في عمل كان من الممكن أن يؤدي إلى مقتل شخص ما، ولم تتوقف إلا بعد ما قالت كل ما لديها، تعاضدها أمهات الفتيات الأخريات.

لم تعد المديرة تتحمل صراخ الأمهات، وما لبثت أن بدأت بتلقينهن درسًا في الوطنية وفي الإخلاص للوطن وكيف ترخص الأرواح في سبيله، وبعد ذلك أضافت:

- ماذا تردن؟ أننفضح أمام الرفيقات المناضلات الفيتناميات؟ أن نقول إن نساءنا لا يستطعن الدفاع عن الوطن؟ بصراحة ما حزرتوا، وما في حدا أحسن من حدا.

الفستان الأزرق

فراشة زرقاء...

هكذا كنتُ أرى أمي، تطير في مشيتها، وتفوح رائحة البنفسج من ملابسها، تشعر بها ولا تستطيع ملامستها، سمراء من جميلات دمشق، متوسطة الطول، عيناها بنّيتان بلون شعرها، وأجمل ما فيها أصابع يديها الطويلة، وإذا عانقتك تحس بحضنها الدافئ الذي تتمنى أن تذوب وتتماهَى فيه، حضن كله حب وحنان.

فتحتُ عيني على الدنيا وعلى أمي الأنيقة دائمًا. صحيح أنه لم يكن لديها الكثير من الملابس إلا أنها كانت ترتديها بذوق وعناية، والأهم رائحتها العطرة على الدوام.

كان أهم فساتينها فستان يوم الأحد وهو المفضل لديها. لم يكن هذا الفستان فستان يوم الأحد فقط وإنما فستان الأعياد أيضًا. لونه أزرق سماوي وعلى موضة الستينات، ضيق في قسمه العلوي، وعريض في قسمه الآخر، مزموم على الخصر... ارتدته لسنين طويلة، مُضيفة إليه في كل سنة قطعة من الإكسسوار ليبدو جديدًا، فسنة تضع وردة

على الصدر، وسنة أخرى شالاً على الكتفين، وسنة زنارًا على الخصر.. وهكذا لسنين عدة لا أذكر عددها بالضبط؛ خمس أو ست.

كانت أمي العائل الوحيد للعائلة، تكافح وتعمل في ثلاث وظائف على ورديات: من الثامنة إلى الثانية بعد الظهر تعمل مترجمة، ومن الثالثة بعد الظهر حتى التاسعة مساءً سكرتيرة في مكتب تجاري، ومن العاشرة مساءً حتى ما بعد منتصف الليل تقوم بطباعة رسائل الطلبة الجامعيين على الآلة الكاتبة في المنزل.

أذكر أن أمورنا المالية كانت على وزن: (أعطنا خبزنا كفاف يومنا). طعامنا عبارة عن ٢٠٠ غرام من اللحم أسبوعيًا ودجاجة شهريًّا...

ولا يمكن لي أن أنسى الدجاجة؛ فقد كانت أمي تحضِّرها في طقوس خاصة، إذ كانت تسلقها وتصنع من مرقها «الشوربة» التي كنا نأكلها على مدى يومين مع الشعريّة والخبز، وتحتفظ برجليها ورأسها لكي تطبخ على مرقها طبخة أخرى. أما لحم الدجاجة فكانت تطعمنا إياه بيديها، نصف لي والنصف الآخر لأختي. وعندما كنت أسألها لماذا لا تأكل معنا كانت تجيبني: (أنا لا أحب لحم الدجاج). لكنها كانت دائمًا تنتظرنا إلى أن ننتهي من أكل لحم الدجاجة لتبدأ بأكل العظام المتبقية منها، ولطالما ادَّعت أن العظام لذيذة

الطعم وهي تحبها... ولم أستوعب تضحيتها إلا بعد مرور سنين طويلة.

جاء العيد في إحدى السنوات، والحالة المادية ضيقة؛ لدرجة أن أمي بالكاد وجدت ما يسد رمقنا. عادةً كانت الأمور أسهل، وكانت أمي تقوم بإعداد أكل العيد من كبة وتبولة وديك رومي إضافة إلى شرائها الهدايا، والأهم فساتين العيد الجميلة، والتي كنا نحصل عليها مرتين في السنة: فستان شتوي في عيد الميلاد، وفستان صيفي في عيد القيامة. وكنا لا نرتدي هذه الفساتين بعد الأعياد إلا في أيام الأحد لنحضر قداس الأحد، وبعدها نذهب بعد الظهرإلى السينما. إنما في هذا العيد، لا يوجد لدى أمي ما يكفي من المال لشراء فساتين العيد، وهي تدورحول نفسها، مهمومة وسارحة في أفكارها في عالم بعيد. أي عيد سيمُرّ علينا ولا يمكنها شراء فساتين جديدة لنا؟ فكرتْ كثيرًا وطويلاً... وبقيت مهمومة لفترة من الزمان.

وفجأة ابتسمت، فقد اهتدت إلى فكرة خلاقة... وإذا بها تأتي بفستانها الوحيد، فستانها الأزرق، فستانها الذي كان كقطعة سماء تتمايل بها أمي، كالحلم الجميل. بدأت تفك قسمه الواسع، رويدًا رويدًا، وسط دهشتنا أختي وأنا وحُزننا، فما الذي تفعله أمي بفستانها الوحيد والمميز؟

بعد أن انتهت من فك الفستان قامت بقياس القطعة

التي كانت تُشكِّل دائرة، ووجدت أن طول القماش كافٍ... وفي خلال يومين فقط قامت بخياطة فستانين جديدين لنا، وخاطت بما تبقى من القماش تنورة ضيقة لها، وارتدتها مع صدر الفستان القديم ليبدو كطقم جديد لها.

لا حدود لإبداع أمي ولا لقدرتها الخلاقة! ذلك اليوم كانت فرحة أمي لا تُنسى خاصة بعد أن ارتدينا جميعًا الفساتين الجميلة وذهبنا إلى الكنيسة لحضور قداس العيد.

فاصل قصير

جاء المُحاضر وتهيأ الناس في المدينة للقائه. موضوع محاضرته يعتبر موضوع الساعة، إذ يدور حول تفنيد واقع المقاومتين الفلسطينية والعراقية. وقد حشد منظمو المحاضرة أبناء الجاليتين العربية والإسلامية لحضور هذا اللقاء المهم.

كان الخلاف بيني وبين صديقي حول شخصية المحاضر، فقد اعتبره صديقي شخصية وطنية في زمن قلَّ فيه وجود الرجال غير المأجورين، وأنه الرجل الذي يجسد نبض الشارع ويعكس تطلعاته، ويعطي كل ذي حق حقه، ويطلق الألقاب (كالزعيم، والمناضل والشيخ... إلخ) على الشخصيات المختلف حولها. لذا رأى صديقي بأن علينا دعمه بحضورنا ودعم منطقه الوطني.

أمَّا أنا فكان لي رأي آخر، إذ يمثل لي المحاضر شخصية الانتهازي بامتياز، الانتهازي الذي يمتطي أي قضية في سبيل تحقيق شهرة ما ولو على حساب كل من حوله باتباعه مقولة (الجمهور عايز كده)، فهو يقوم دائمًا بدغدغة مشاعر رجل

الشارع وأحاسيسه.

ومع ذلك ارتأيت أن أحضر مع صديقي هذه المحاضرة... وفعلاً كان الحشد كبيرًا في قاعة تتسع لما يقارب ١٥٠٠ شخص.

ابتدأت الاحتفالية بعزف وغناء للتراتيم الدينية قدمتها فرقة من أبناء الجالية. ومن ثم دعا عريف الحفل المحاضر إلى المنصة بعد أن أتحفنا بنبذة مُنمَّقة عن حياته.

صعد المحاضر إلى المنصة مزهوًّا كالطاووس. وبدأ حديثه بشكل مؤثر استحوذ به على مشاعر وأحاسيس الجمهور الذي بدأ بتحيته، وبالتهليل والتكبير لدى تلفظه بالكلمات التي تحرك قلوب الحضور المكوية أصلاً بنار المعاناة جراء ما حصل في البلاد. وتطور الأمر إلى درجة بكاء بعض الناس. لكن حديث المحاضر لم يقدِّم أي معلومة جديدة، ولم يكن منسقًا بشكل أكاديمي. وحديثه معنا أشبه بحديث حكواتي الحارة ورواياته.

في ذروة المحاضرة، أعلن عريفها التوقف عن متابعتها لفاصل قصير، وذلك لأن أحد ممولي المحاضرة افتتح حديثًا متجرًا للإلكترونيات، وقد تبرع بأربعة هواتف جوالة للحفل، وقد طلب عريف الحفل من المحاضر الكبير القيام بالإعلان عن المتجر وإجراء القرعة واختيار الأرقام الرابحة. ولم يكذب

المحاضر الخبر وابتدأ بالإعلان بشكل مفصل عن المتجر، ومن ثم قام باختيار الأرقام الرابحة. وبدأ الهرج والمرج، ونسي الجمهور موضوع المحاضرة.

تذكرتُ على الفور تلك المذيعة الجميلة بإحدى القنوات وهي تلقي علينا باسِمةً خبر موت مائة شخص جُرحوا في اليوم السابق، ثم تعتذر قائلة: (سنتابع الأخبار بعد فاصل قصير)، لتظهر صبية جميلة شقراء معلنة غنائيًا عن العطر الجديد: (سمبا... سمبا... سمباتيك... أنا حلوة... أنا شيك).

لم أستغرب أن قام المحاضر، خلال فاصل قصير، هو الآخر بارتداء بذلة الرقص الشرقي ليتحفنا بوصلة فنية تليق بنا.

صحيح، إذا لم تستحِ فافعل ما شئت.

ذهب ولم يعُد

كان عُرسًا على الطريقة العربية بامتياز... على سطح أحد الأبنية أطفال، رضَّع، عجائز، نساء ورجال، والكل يتكلم بصوت واحد. يتشابك المتحدثون، بحيث لا يمكنك أن تعرف من يتكلم مع من. بعضهم اعتراهم الطرب، وآخرون أخذهم الحماس وبدأوا يرقصون الدبكة، والأطفال يركضون بين الأرجل كالعفاريت الصغيرة، والرضَّع يبكون إذ أن الضجيج حرمهم من الاستمتاع بالنوم.

أمَّا العروس فضائعة بين الجميع، فهذه ليلتها الأخيرة بين أفراد عائلتها، وهذه حفلة وداعها، والمفروض أن تمضيها مع أصدقائها وعائلتها. لكن من جاءوا إلى الحفل لا يمتّون للعروس بصلة، وهي لم تتذكر أيًّا منهم. وأخوها الذي أعدَّ الحفل فوجئ بهذا الحضور الكثيف، لأنه قام بدعوة عدد معين من الناس، وأعدَّ الطعام لهم، لكنه الآن في ورطة؛ إذ من أين له أن يُطعم هذا العدد الكبير. لقد كان واضحًا في نص الدعوة وصريحًا. لكن الناس تصرَّفوا كما تصرَّف «آغوب» حين دُعي ذات مرة إلى العشاء في بيت أحد الأصدقاء، إذ

قالت الدعوة (تعال وأحضر شيئًا بيدك)، فأتى آغوب ومعه صديقه عوضًا عن شيء من الطعام أو الشراب. وهذا هو ما فعله المدعوون، إذا إن كلاً منهم أحضر كتيبة من الأهل والأصحاب، فالعُرس ضمن العائلة، ويفترض أن يكون الأكل والشراب بالهبل.

في هذه الفوضى، استرعى انتباهي شخص واحد جالس بعيدًا عن الجمع ينظر إلى الأرض ويلوح بجسمه يمنةَ ويسرةَ، ويقول:

– أنا ما مزقتُها، الله أعلم من فعلها... أنا ما شقيتُها... ويلي... ويلي...

واضعًا يديه على رأسه.

كان قد احتسى الكثير من الشراب الكحولي ومازال مستمرًّا. وشيئًا فشيئًا تحوَّل إلى ما يشبه رجلاً مسَّه الجنون. وبدأ بالضحك ومن ثم بالبكاء. اعتراه الهدوء للحظات، ثم عاوده البكاء إلى أن أنهكه، والجميع يحاول تهدئته، ولم تفلح محاولاتهم. وعلى الدوام، ظلَّ هذا الشخص يكرر الجملة ذاتها: (أنا ما شقيتها...)، إلى أن وقع على الأرض.

جاء أخو العروس، وساعدناه على حمل الشخص، أو بالأحرى على جرِّه إلى الشقة التي في الطابق الأسفل. وحاولت أن أفهم منه ما معنى هذه الكلمات التي يرددها ولم

أنجح، إلى أن شرح لي أخو العروس ما حدث لهذا الشخص المسكين الذي هو أيضًا من العائلة.

كان هذا الشخص يعمل مديرًا في المحافظة، وهو مستوف للشروط التي تؤهله للعمل كلها، وأهمها انتماؤه للحزب الحاكم. وحدث أن أتى يومًا كعادته إلى المكتب صباحًا، هذا المكتب المفروش كما يليق بمدير، الطاولة من خشب الزان البُني اللون، كبيرة وعليها أربع هواتف ولوازمها، أما المقاعد الوثيرة فكانت من الجلد البُني الأنيق، وفي الوسط سجادة عجمية عملت على تجميل المكان برسوماتها الجميلة، ويغلب عليها اللون الأحمر ليتناسب مع لون المقاعد والطاولة، وكما هي العادة كان في صدر المكتب صورة للسيد الرئيس.

في هذا اليوم كان موعد صاحبنا مع همٍّ لا يمكن له أن يتخلص منه. فقد صُدم حين رأى صورة الرئيس ممزقة، وأين؟ في غرفته... ومكتبه... وحائطه... وحياته...

بدايةً، لم يُصدِّق عينيه، بل ظنَّ أن ما رآه تهيؤات. فرك عينيه مرة... وثانية... لكن الصورة كانت بالفعل ممزقة. من يجرؤ على فعلةٍ كهذه؟

أحسَّ بهول الأمر وجلس بهدوء على كرسيه، محاولاً أن يستجمع أفكاره، وعمل على تصور ما هو قادم: سيستدعونني

إلى التحقيق... نعم... لا بدَّ لهم أن يقوموا بذلك.

وبالفعل دُعي للمثول أمام المحافظ، مديره المباشر، واستقبله المحافظ وعلى وجهه ملامح الجدية والاهتمام، وسأله إن كان لديه أيّ فكرة عن الفاعل. (عن الفاعل؟... يقصدني ربما)، هذا ما قاله لنفسه، ولكنه تحايل. وأجاب على السؤال بالنفي، إذ إن هذا العمل أكبر من أن يقوم به أي إنسان يعرفه. وأذن له المحافظ بالانصراف بعد أن طلب منه نسيان ما حدث واستبدال الصورة.

هكذا، بكل بساطة، دون أن يحيله إلى التحقيق: إذًا، لا بد من أنهم يهيئون له الأعظم. وعاد إلى مكتبه، وحاول الاتصال بأصدقاء في مناصب أعلى من منصبه، وشرح لهم الموقف لعلهم يقومون بمساعدته ويشرحون بدورهم لسيادة المحافظ ما حصل. بعضهم سعى إلى طمأنته، وبعضهم الآخر ضحك لسخافة ما حدث ومخاوفه غير المعقولة.

بقي صاحبنا يوميْن غارقًا في الغم. لا يستطيع أيَّ شيء أن ينتشله منه ولا حتى صاحب الصورة نفسه. وصادف أن كان اليوم الثالث هو يوم وداع عروستنا. وحاول صاحبنا أن يتمالك نفسه، وبدأ باحتساء العرَق على أمل أن يخفِّف الشراب الشدَّة التي يعانيها... وتمادَى إلى أن وقع أرضًا.

انتهى الحفل، وانفضَّ الجمع وعادوا إلى منازلهم، بعد أن

ملأوا البطون وشربوا حتى الثمالة.

في اليوم التالي، ذهبتُ لأسأل عن حال ذلك الرجل. وفوجئت بالجميع يلبسون الأسود. والهدوء يخيم عليهم. ولا يعكر صفو هذا الهدوء إلا بكاء بعض النساء ونهنهتهن. ماذا حصل؟ لا شيء سوى أن صاحبنا نام ليلة البارحة ولم يصحُ. وفي رواية أخرى: ذهب ولم يعُد.

فارس هذا الزمان

جمعت العائلة كلَّ ما ادَّخرته وما أمكن لها استدانته لترحيل الصبيتين لتلحقا بأمهما، التي سبقتهما إلى أمريكا. فالحرب كشفت كل ما كان معتمًا عليه، وبدأ القتل على الهوية، وكان أول ضحايا هذه الحرب من النساء والأطفال والعجائز والأقليات.

عائلة هاتين الفتاتين كانت تعيش في قرية مسيحية في منطقة معزولة من البلاد، لم يغادرها سُكانها في حياتهم، تربّوا فيها على الخوف من الغُرباء، وتحديدًا من الغالبية المسلمة التي تعوَّدتْ على إذلالهم متى سنحت الفرصة لها لإحساسها بالقوة والغلبة والتفوق العددي والاقتصادي على سكان القرية المسيحية.

كان سُكان القرية - كالسكان المسيحيين الآخرين- يحاولون السير، كما يقولون: (الحيط الحيط ويا ربّ السترة)؛ اتقاءً لغضب المسلمين، حتى أنهم كانوا يعمدون إلى تسمية أبنائهم الصبية بأسماء مسلمة؛ خوفًا من أن يتعرَّف عليهم جيرانهم المسلمون. فصورة المسلم بالنسبة

لهؤلاء المسيحيين كانت صورة الطاغي الذي يريد إيذاءهم وإزالتهم من الوجود.

انضمت الفتاتان إلى مجموعات أخرى أغلبها من النساء من قُرى مسيحية أخرى، حتى وصلنَّ إلى أوروبا. وهناك، وُضِعنَّ في أحد مراكز تجميع المهربين، وأُلحِق بهن مجموعة كبيرة من الشبان الأفغان... (أفغان، يعني مسلمين)... انكمشت الفتيات على أنفسهن، وبدأن بالبكاء، وأجسادهن ترتعش من الخوف، ورُحن يتناقشن فيما بينهن مُحاولاتٍ تصور ما قد يمكن أن ينالهن على أيدي هؤلاء المسلمين، واتفقن على تناوب الحراسة، ليل نهار، ليكنَّ على أهبة الاستعداد إذا حاول أحد هؤلاء الشبان الأفغان التحرش بهن.

بعد عدة أيام، أمرهم المهربون بالاستعداد للمسير، وكان عليهم أن يقطعوا غاباتٍ وأحراشًا في أماكن موحشة لا يعرفونها، تحت رداء الليل. وعرفوا منذ البداية أن من يتعب أو يتخلف عن الركب يُصفَّى جسديًّا من قبل عصابات التهريب، إذ ليس لديهم وقت للانتظار أو حتى الأدوات لحمل من يتعب، والتخلص من عبء الإنسان الذي يتخلف عن الركب لا يكلف سوى رصاصة واحدة.

كانت إحدى الفتاتين ممتلئة الجسد، يزيد وزنها عن المائة كيلو غرام، وكانت ترتدي حذاءً أملس المداس وليس من الأحذية الخاصة بالسير في الأدغال، هذه التي يجب أن

يكون مداسها سميكًا وفيها فراغات عديدة كي لا ينزلق من يلبسها. ولسوء حظ الفتاة، زلقت رجلاها، وسقطت بكل ثقلها على ركبتيْها، ومع ذلك حاولت متابعة السير، لكن ألم إحدى ركبتيها تزايد وتزايد ورمها.

عرفت الفتاة أنه لم يعد بإمكانها متابعة الطريق، وأنها هالكة لا محالة، وبدأت النسوة بالبكاء، ورجَتْهُم الفتاة أن يأخذوا أختها وينتبهوا لها وقامت بتوديعها.

كان مشهد الأختين مشهدًا مأساويًّا، الأولى المصابة تحاول إبعاد أختها، والثانية السليمة ترفض تركها وتُصِرُّ على مساعدتها.

غضب رجل المافيا الذي يقود المهرِّبين، وأخذ يحثهم على الإسراع... تَرْكُ المصابة يعني تصفيتها، وعيارها طلقة واحدة لا تكلف سِنتًا.

في وسط هذه البلبلة، فجأة، تقدم أحد الشباب الأفغان من المصابة، وكان يتكلم اللغة العربية الفصحى، وقال لها: (لن أتركك وحدك)، ورفض السير دونها، وأصرَّ وسط ذهول الجميع على حملها على كتفيه.

أحسَّت هي بالأمل وبالخجل في آنٍ واحد... فهي تعلم أن وزنها قد يُهلكها ويهلكه معها، وهو في نفس الوقت، رجل مسلم، وهي تربت على أن المسلم لا يريد الخير لأي

مسيحي، فكيف لهذا الرجل أن يساعدها... إصراره، لم يترك لها المجال لرفض المساعدة المعروضة عليها، وهو لم ينتظر ردَّها، بل تقدم منها وحملها على ظهره، ووعدها بأن لا يُنزلها إلا بعد وصولهم إلى برِّ الأمان.

رائحة ملابسه وعرقه دخلت في أنفها، أحسَّت بالدفء، كيف كان لها أن ترى فيه عدوًّا! ودقات قلبها تعانق دقات قلبه، فهو القريب والبعيد في آنٍ واحد... تلازُم جسديْهما خَطَّ ظلاًّ واحدًا على الأرض، ومصيرهما المشترك أبعد شبح الكراهية، تمنت لو كان لديهما فرصة أفضل للتعارف، للتواصل، لهدم حاجز الخوف الذي بُنِيَ على هواجس دفعتها للتقوقع على ذاتها.

غريب هذا العالم، فلو توقف كل منا لحظة، وأمعن النظر في عيني الآخر، لتلاشت كل المخاوف ولتلاقى البشر.

استمر هذا المسير تسع ساعات عبر الأحراش والغابات، حتى وصلوا إلى الحدود النمساوية، هناك أنزلها الشاب عن ظهره. لم تعد قادرة على قول ما يفي هذا الإنسان حقه، والعبارة الوحيدة التي تمكنت من قولها كانت: (لن أنساك مدى الحياة)... وقد حاولت لثم يديه، فسارع إلى سحبهما وقام هو بتقبيل يديها ورجاها أن تصلي من أجله لكي يصل إلى البلد الذي يقصده.

ابتعد فارس هذا الزمان الأفغاني ملوحًا لها بيده، وظلت هي تنظر إليه وهو يبتعد، متسائلة إن كانت ستصادف مرة ثانية شخصًا يحمل صفات هذا الشاب الجميل؟... وهو ليس جميلاً فقط بل إنه الجمال كله، ينبع من داخله لينعكس على وجهه الطافح بالرجولة محبةً وتسامحًا.

البلاغ رقم (١١٥٥٥)

صدر البلاغ رقم ١١٥٥٥ بتاريخ ١ أيار/ مايو ٢٢٣٠، وجاء فيه:

(تُمنع الأحلام بأمر من الحاكم بأمر الله، ويُعاقب كل من يحلم بالسجن، وقد تصل العقوبة إلى حد الإعدام، وذلك بحسب خطورة الحلم).

اعتبر الحاكم بأمر الله أن الأحلام مُعدية، وتنتقل بسرعة كالوباء عبر الهواتف والإنترنت والمحطات والمطارات والطُرقات، وكل ما يتحرك على وجه هذه الكون.

واُعتبرت الأحلام ممنوعة بمجملها، الملونة الحديثة، والبيضاء والسوداء القديمة، وتُصنَّف بالخطرة لأنها تنقل معها الأفكار الهدَّامة من الدول التي تُعتبر قد حققت بعضًا منها، خاصةً ما يتعلق منها بحقوق المواطن. إذ إن البلاد التي عملت على تحقيق هذه الأحلام، يُبحث فيها عن الحقوق، أما في بلادنا فما زلنا نبحث فيها عن المواطن، هذا المواطن الذي لا قيمة له، ولا تُقارن قيمته بقيمة قطعة الأثاث التي تُباع وتُشترى، فهو ما زال بعيدًا عن هذه المرتبة.

نعود إلى الأحلام، فقد صدر مع قرار منعها آلية تحقيق هذا المنع، حيث شُكلّت وحدات أمنية مهمتها السهر على أمن المواطن ومراقبة أحلامه عبر استخدام مناظير خاصة تُركِّز في أماكن المُدن العالية، ومن ثم يتم مصادرة أحلام المواطنين بعد ضبطها، ويصار إلى تحليلها وتمحيصها لمحاولة فهم نوايا المواطنين.

وتجدر الإشارة إلى أن القرار لم ينس تضمين أحلام اليقظة إلى قرار المنع.

طُبِّقَ القرار، ومُنِعت الأحلام، وانتشرت بالتالي تجارة الأحلام السرية المهربة... وتضاعف عمل وحدات مراقبة الأحلام، وبدأت حملات المداهمة للمواطنين ومصادرة أحلامهم. وتمكن ضباط وحدات المراقبة بعد فترة من الزمن من تحديد الطبقة الاجتماعية التي ينتمي الحالمون إليها، فالأحلام الملونة هي من نصيب الأغنياء، والأحلام الأسود/ الأبيض من نصيب الطبقة الوسطى، أما الفقراء فأحلامهم هي كإرسال التلفاز عندما ينتهي البث: خطوط وصوت مزعج.

وانتشر الفساد في صفوف وحدات المراقبة، وبدأ أفرادها بالاستيلاء على الأحلام المُصَادرة التي تجلب اهتمامهم ومشاهدتها سِرًّا.

احتارت الدولة، كيف لها أن توقف زحف تأثير هذه الأحلام التي أصبحت كالوباء، فلو اقتصر أمر استيلاء وحدات المراقبة على الأحلام الجنسية لكان أمرًا مبلوعًا، أما أن يتمادى ويصل إلى الأحلام التي تهز كرسي العرش، فهذا أمر أصبح يشكِّل تهديدًا كبيرًا...

ولكن الأخطر؛ هو عودة أبناء الوطن من بلاد الاغتراب مُشبَّعين بما يسمى حقوقًا وما إلى ذلك من أفكار هدامة، وجاهزين لبثها.

لذلك اضطرت الحكومة إلى تطبيق قوانين الطوارئ، فالوضع مقلق ويهمُّ مستقبل الوطن وسيادته. وصدرت الأوامر بالقبض على الجميع وعلى كل من تُسوِّل له نفسه الحلم أو التفكير بالحلم أو حتى من لديه نوايا من هذا النوع بالحبس والإهانة والعمل على كسر عزيمتهم وكبريائهم، وذلك لإيصال رسالة إلى أبناء الوطن في الداخل وفي الخارج أن (لا ذقن ممشطة لدى الحكومة).

غَزَّة في القلب

تقرَّر ذهابنا إلى «غزة» لتدريب زملائنا الفلسطينيين على القيام بالوظائف التي كنا نقوم بها. كان عدد أفراد مجموعتنا يقارب مائة شخص من جنسيات متعددة، ثُلثهم عرب يحملون جنسيات أجنبية. وكان عدد كبير من زملائنا بعيدًا عن القضية الفلسطينية ولا تعنيه، وكان الباقون متعاطفين مع الإسرائيليين.

وصلنا إلى المطار وركبنا الحافلات إلى غزة، وبين المطار وغزة، أحسسنا بانتقالنا من عالم متقدم إلى عالم ثالث، رغم أن المسافة لا تزيد عن الساعة والنصف. في المنطقة الأولى، الخدمات متوفرة وكأننا في أوروبا، وفي المنطقة الثانية الخدمات غير متوفرة بكل بساطة، بدءًا من الشوارع التُّرابية المليئة بالأوساخ والمجاري التي يمكنك السباحة فيها، إلى الكهرباء إلى المياه إلى الطعام والشراب... إلخ.

في المنطقة الأولى تُنير الكهرباء الطرقات ما بين المدن والقرى، في المنطقة الثانية تصل الكهرباء لمناطق بعينها ولساعات محددة.

أما المشكلة الكبرى فهي شح المياه وتلوثها في المنطقة الثانية، التي قال عنها الأطباء إنها غير صالحة حتى لشُرب الحيوانات، في حين أن المستوطنات الإسرائيلية تحصل على المياه التي هي أصلاً من قطاع غزة وأُخِذت مباشرةً من منابعها وتحوَّل مجراها خارج غزة، فضلاً عن أن كل بيت في المستوطنات لديه مسبح خاص مملوء بالمياه الصالحة للشرب!.

كانت الجولة الأولى لنا في مخيمات غزة، أصيب الجميع بالصدمة، فقروبطالة وخرائب يعيش فيها أناس مصرّون على الحياة. شوارع المخيمات ضيقة لدرجة أن بعض الأماكن لا مجال فيها لدخول أي نوع من الحافلات. وقد تسنَّى لي سؤال سيدة إن كانت قد خرجت من المخيم لزيارة أي مكان، أو حتى إن كانت تحلم بالخروج، صمتت للحظات ثم قالت:

– بتعرفي بالمخيم ما بتشوفي إلا حيطان، حتى الميتين منطلعهم من نوافذ البيوت حتى نوصلهم للشارع الرئيسي، يعني اللي بدي قولو إنو أفكاري كمان بتحدها هالحيطان، يعني بعمري ما قدرت أفكر أبعد من حيطان المخيم.

بعد أسبوع تمكنتُ من استئجار منزل، وكنتُ بحاجة لمساعِدة للقيام بتنظيفه. وبمعونة أصحاب المنزل جاءتني سيدة في الثلاثينيات لمساعدتي. نزعت السيدة معطفها الأسود الطويل وغطاء رأسها، وفوجئتُ بها تقوم بنزع رباط

طويل من القماش كانت قد لفّته حول معدتها وبطنها، طوله أكثر من خمسة أمتار. وتجرأتُ وسألتها لماذا تلف معدتها؟ أجابتني هامسة:

- مش أحسن ما أحس بالجوع؟ ولادي محتاجين الأكل أكتر مني.

بدأت المعاناة عند المعابر، وخصوصًا معبر «إيريتز»، حيث كان يقوم على حراسة المعبر شابان في العشرينيات، يتعاملان بفوقية مع العابرين ومن ضمنهم الموظفون الأميون. مع مرور الوقت اعتدنا على رؤيتهما.

ولم يمضِ شهر على وجودنا في غزة حتى بدأت الأحداث على معبر إيريتز، إذ لم يُسمح للعمال الفلسطينيين بمغادرة المعبر للعمل خارج غزة، وذلك بعد أكثر من سبعة شهور على حبسهم في معتقلهم الكبير غزة، مما جعلهم يتمردون ويتدافعون لاقتحام المعبر.

بدأ الحُرَّاس الإسرائيليون بإطلاق النار، وتجمهر الفلسطينيون من حولهم بالحجارة للدفاع عن أنفسهم. لم يتمالك زميلٌ إيطالي نفسه من الذهاب إلى المعبر لتصوير ما يحدث، نهارًا كاملاً، أدَّى إلى قتل وجرح الكثير من الفلسطينيين، وكذلك جرح العديد من الإسرائيليين.

رجع زميلنا في أخر النهار ودخل مباشرةً إلى مكتبه، رافضًا التكلم معنا، غير منتبه للخوف الذي تبدى على وجوهنا لرؤيته، فقد كان مُلطخًا بالدماء من رأسه حتى قدميه جراء مساعدته في نقل الأطفال المصابين إلى عربات الإسعاف. دخل مكتبه وأغلق بابه وبدأ بالبكاء، ولم يستطع أحد منا اللحاق به، وكأننا اتفقنا أن ندعه يُعبِّر عن حزنه بطريقته.

بعد أن هدأت الأمور، وسُمِح لنا بعد أسبوعين بالعبور، انتابني قلق وبدأت أفكر بالمجنديْن وتمنيت أن لا يكونا قد أصيبا في أثناء القتال، وعجبت لأفكاري، كيف لي أن أحس بالخوف عليهما، أليسا من المعسكر الآخر، ألم يتورطا بقتل أو جرح أطفالنا؟ ولكني فكرت وقلت لنفسي هم أيضًا شباب يافع، والمفروض أننا إخوة في الإنسانية، وأنا مقتنعة تمامًا أن أخطاء المحتلين لا تبرر خوفي من أحاسيسي.

كل هذا الواقع المتردي والفقر المدقع والمعاناة اليومية، إلا أننا لم نجد من يستجدي أو يشحذ، كبرياء وأنفة وإحساس بالكرامة عال. حتى عندما قام بعض الزملاء بعرض المساعدة، رفضت المساعدة بكثير من الأدب الذي جعلنا نخجل من عدم قدرتنا على تغيير واقعهم المؤلم.

وجاء يوم رحيلنا، وودّعنا أهلنا، وقبّلناهم، وقبّلنا أيادي أمهاتنا الصابرات. ووصلنا إلى المعبر للمرة الأخيرة، وجاء ضابط رفيع المستوى لوداعنا وللاعتذار عن كل المضايقات

التي تعرضنا لها، وأراد السلام علينا، لكن الجميع رفضوا مصافحته، وتقدمت سيدة كبيرة من أصدقائنا وقالت له:

– سيدي، قبل مجيئنا إلى غزة كنا قسمين: قسم منّا متعاطف معكم والآخر لا يهمه هذا الصراع، ولكن بعد مجيئنا وعيشنا مع الفلسطينيين ورؤيتنا لمعاناتهم اليومية، لم يعد بإمكاننا إلا التعاطف معهم، ولن نسكت بعد الآن، وسننقل صورة هذا الواقع إلى العالم، بعد أن أصبحنا جميعًا مهتمين، فرجاء وفر سلامك لنفسك، ونحن محظوظون لأننا لا نعيش بينكم.

المنطقة الرمادية

كنتُ في أواخر السنة الأولى من دراستي الجامعية، وكعادتي، لبستُ الجينز والقميص الأبيض استعدادًا للذهاب إلى الكلية. اعترضت أمي طريقي قائلة:

– أليس اليوم هو يوم الحفل السنوي للكلية؟

فأجبتُ:

– نعم.

– وهذا هو ما تلبسينه في هذا اليوم؟... تعالي لنرَما لديكِ في خزانتك.

وسحبتني من يدي.

أكثر ما كنت أخشاه هو أن تجبرني أمّي المتمسكة بالأصول على لبس فستان يوم الأحد، الفستان الوحيد الذي أملكه. وهذا هو ما كان. واقتضى حرص أمي على الأصول شيئًا آخر، فقد حان الوقت لكي أشتري حذاءً بكعبٍ عالٍ، حذاء يليق بهذه المناسبة، فأنا قد أصبحت آنسة في نظرها ويجب أن أُغيِّر ملبسي هذا الذي يشبه ملبس الصبية.

نزلنا معًا إلى سوق «القصاع»، واخترتُ حذاءً بسيطًا

وأنيقًا له كعب طوله خمسة سنتيمترات، بعد أن قمنا بزيارة محلات عدة. لبستُه في الحال كي أتمرن على السير به، وأنا على الطريق إلى الجامعة.

كانت هذه هي المرة الأولى بعد سنوات طويلة للتصالح مع معالم الأنوثة التي كنت أحاول دائمًا إخفاءها، طَرقات كعب الحذاء أطربتني وجعلتني كالفراشة أتمايل على وقعها.

في طريق عودتنا، مررنا بمكان خاص بالمخابرات الجوية، مكان يحيط به حائط عالٍ لا يمكن أن نرى أي شيء عبره، مكان أشبه ما يكون بالقلعة، يُحيط به الحُرَّاس من كل الجوانب. انتبهت أمي إلى إيقاع صوت حذائي الجديد على أرض الشارع، فلم تتمالك أعصابها بل أمسكت يديّ بعصبية وحذَّرتني:

– هُس، على صوت واطي، لا تطلعي صوت، امشي على أطراف أصابعك.

نظراتي المتسائلة دعتها لإيضاح ما تعني، فغمزتني قائلة:

– سنتحدث بعد قليل.

وأشارت إلى رجال الحرس.

بعد أن قطعنا الشارع بعيدًا عن هذا المكان المُخيف، استرسلت أمي قائلة:

– حبيبتي، تحت هذا المكان هناك سجن واسع، لا أحد

يعلم كم عدد المساجين فيه، وهؤلاء المساكين ينتظرون أن يُعِينهم أحد، وبطرقات حذائك التي قد تكون مسموعة من قِبَلِهم، يظنون أن بإمكان الآخرين سماعهم، فرجاء لا تعطيهم هذا الأمل، لأن الحال ميئوس منه، ولا يمكن لأحد أن يمدهم بأي مساعدة.

حادثة مازالت تدور في رأسي ولم أتمكن رغم مرور سنوات طوال من أن أنساها. والسؤال: هل يكفي أن نقف مكتوفي الأيدي وعلى وجوهنا علامات الحسرة والتأسف لحال السجناء، أو تكفي دعواتنا لهم بأن يُفرِّج الله كربهم وأن يعودوا إلى الحرية، وهل هذه الدعوات هي التي ستحقق لهم العدالة؟ وهل يمكن أن يقبل بأن يهان هذا الإنسان الذي خلقه على شاكلته وأن يعذب وتمتهن كرامته.

كيف يمكن لإنسان أن يُبقي إنسانًا آخر معلقًا ما بين الحياة والموت في منطقة رمادية اللون، منتهكًا كل الأعراف الإنسانية... والجلاد الذي يقوم على تعذيب الآخرين، هل هو قاتل مبرمج؟ أو عُرِّض لغسيل دماغ فانقلب إلى وحش لا يعرف قلبه الرحمة؟ أم هل التمرس على تعذيب الناس، وضربهم بالعصي والأدوات الحادة والكهرباء، واقتلاع أظافرهم وإغراقهم في الماء وكل أنواع التعذيب النفسي... إلخ؛ انتزع منه آدميته؟

وإذا ما أخذنا في الحسبان أن في البلد خمسة وعشرين

سجنًا مُعلنًا وما لا عدَّ له من السجون غير المعلنة، فهل يصبح من الضروري لنا أن ننتبه لوقع خطواتنا أينما سرنا؟!

❖ ❖ ❖

المؤلفة في سطور

- كاتبة سورية وصحافية وناشطة اجتماعية ونسوية.
- حاصلة على ليسانس في اللغة الفرنسية، من كلية الآداب – جامعة دمشق في العام ١٩٨٤.
- تعمل في منظمة الأمم المتحدة منذ ١٩٨٧ وحتى الآن (الأونروا ومن ثم مكتب الأمم المتحدة المعني بالمخدرات والجريمة).
- تعمل في منظمة الصليب الأحمر لمحو الأمية للشباب اللاجئين السوريين في فيينا / النمسا.
- عضو مؤسس ورئيسة رابطة المرأة العربية، فيينا / النمسا.
- مديرة ومدرِّسة في مدرسة اللغة العربية بالرابطة.
- عضو مؤسس ورئيسة مشروع «بلسم» الخاص باللاجئين السوريين.
- عضو مؤسس لرابطة موظفي الأمم المتحدة العرب، فيينا / النمسا.
- عضو في حركة السلام من أجل سوريا.
- ساهمت في العمل الاجتماعي في دمشق / سورية عبر إقامة صفوف لمحو الأمية لأربع سنوات، إضافة لعملها في صفوف المرأة.
- تحاضر في العديد من المنابر النمساوية (مدارس / كنائس / منظمات أهلية /... الخ.) عن أوضاع اللاجئين السوريين، وعن الموسيقى كمشروع لبناء هوية جامعة للاجئين السوريين.

• الجوائز:

- ٢٠١٥: حاصلة على جائزة الأمين العام للأمم المتحدة السيد بان كي مون للعمل الطوعي عن مشروع بلسم

- ٢٠١٦: حاصلة على جائزة نساء الأمم المتحدة في فيينا النمسا عن مشروع بلسم

- ٢٠١٧: حاصلة على جائزة نساء الأمم المتحدة في نيويورك أمريكا عن مشروع بلسم

- إضافة لعدة جوائز قدمت لها من عدة منظمات غير حكومية في فيينا /النمسا.

• الإصدارات:

- المنطقة الرمادية: مجموعة قصصية.

الطبعة الأولى: الحضارة للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠١٤

الطبعة الثانية: مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠٢٢.

الطبعة الألمانية: دار قلم النمساوية، فيينا ٢٠١٥.

- الهروب إلى الأمام: مجموعة قصصية

الطبعة الأولى: الحضارة للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠١٥

الطبعة الثانية: مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠٢٢.

الطبعة الإنجليزية: يناير ٢٠٢٣

• البريد الإلكتروني: mtkiriaky@gmail.com

المحتوى

شمس للنشر والإعلام

ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net